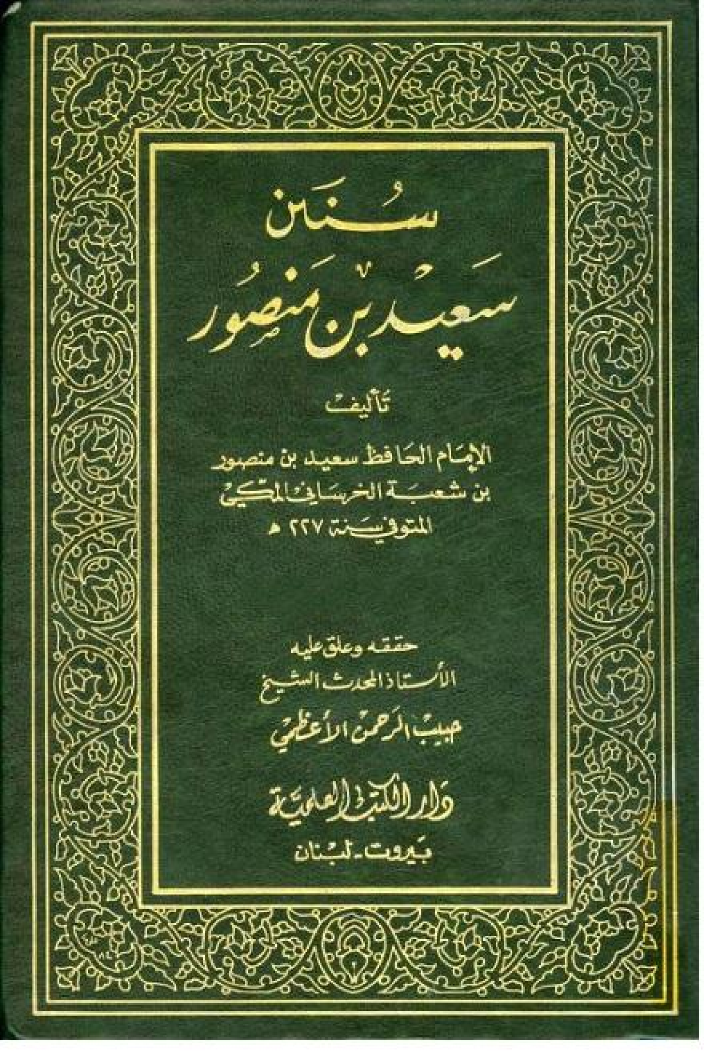

سنن
سعيد بن منصور
تأليف
الإمام الحافظ سعيد بن منصور
بن شعبة الخرساني المكي
المتوفى سنة ٢٢٧ هـ
حققه وعلق عليه
الأستاذ المحدث الشيخ
حبيب الرحمن الأعظمي
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدمة

من الاستاذ الدكتور محمد حميد الله

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله مدينة العلم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم.

ليس من الحوادث المتكررة كل يوم أو التي يكثر وقوعها ان تكون مخطوطة من كتب القدماء، حسبناها فقدت فلا سبيل إليها إلى آخر الأبد، فإذا هي قد ساقها القدر إلى إنسان محظوظ ظفر بها في إحدى المكتبات الخصوصية أو العمومية، وليس هذا إلا صدقة ونعمة من نعم العزيز الوهاب، وهذا هو حال الكتاب الذي نقدّمه اليوم إلى طلاب العلم.

إن الإمام المحدّث الكبير سعيد بن منصور بن شعبة معروف بين العلماء من لدن معاصريه إلى يومنا هذا، بالتقدم في معرفة الحديث، وحفظه وكفى له فضلا وجلالة أنه من شيوخ الإمام أحمد، وأبي زرعة وأمثالها وحدّث عنه أحمد وهو حي، وأنه أستاذ الإمام مسلم، صاحب «الصحيح»، وغيره من فحول المحدثين الأقدمين، وكان كتاب السنن من تصانيفه من أجل ما صنف في الأحكام وأقدم من الصحيحين، والسنن الأربعة، كنا نسمع به، وما كنا نجده مذكورا فيما بين ايدينا من فهارس المكتبات في الشرق والغرب.

حكاية الإكتشاف

فاتفق ان المذنب العاصي، المفتقر إلى رحمة الله، راقم هذه الأسطر محمد حميد الله، كان في السنة الدراسية ١٣٨٠ هـ باستانبول مشتغلا ببعض حاجاته العلمية في مكتبة محمد باشا كوپريلي (كوپرولو) الصدر الأعظم السابق، وهي من كبار المكتبات هناك. فسألته إدارة تلك المكتبة ان يساعدها في ترتيب مجلدات لإحدى المخطوطات، والتمييز بين الأول والثانية، وغيرهما من تلك المجلدات المجهولة.

ولهذه المكتبة فهرس مطبوع، وفهارس مكتبات إستانبول، مع قدامتها يمكن عليها الاعتماد عادة، على ٩٠ في المائة من محتوياتها على الأقل لأن واضعيها كانوا في الأكثر اهل العلم والخبرة، وكانت هذه المخطوطات من المستثنيات القليلة الشاذة، وللشاذ حكم المعدوم، فلما راجعنا إلى فهرس المكتبة، وجدناه يذكر تحت الأرقام ٤٣٨ إلى ٤٤٤: «نسخة ديگر» (أي نسخة أخرى) يعني من مشكاة المصابيح.

ولما تصفحنا المخطوطة. وجدنا على ناصية المجلد المرقوم ب ٤٣٨: «مصنف ابن أبي شيبة»؛ وعلى ٤٣٩: «المجلد الرابع، غلط، صح: المجلد الثالث» (بدون تفصيل آخر)؛ وعلى ٤٤٠ إلى ٤٤٤ أيضاً: «مصنف ابن ابي شيبة».

فلا بد ان يظن الظانّ ان الكل «مصنف ابن ابي شيبة» وان ما ذكر في الفهرس سهو، وأنه لم يبق إلا تمييز المجلدات بعضها من بعض وترتيبها، وهو امر بسيط، لا يصعب على من حرفته الورقة وخدمة العلم.

فلما رأيت في أول المجلدات (رقم: ٤٣٨) أن المباحث تبتدىء بباب «المرجومة تغسل... كفن الميت إلخ» ولم اجد المقدمة، ولا كتاب الطهارة

في هذه المجلدات السبعة، قضيتُ ان النسخة ناقصة.

وفي اثناء تصفحي لها وجدت «أبواب الجهاد» مذكورة في ثلاث مجلدات اعني في ٤٣٨، و٤٣٩، و٤٤٢، فحسبت ان في مجلدات هذه النسخة الناقصة مكررات أيضاً. ولكن لما قابلت بين ٤٣٩، و٤٤٢ لم أجد أي تطابق بين محتوياتها من أبواب الجهاد، لا بين ترتيب مباحثها، ولا في اسانيدها، حتى ولا بين الأبواب السالفة والتالية لكتاب الجهاد في هذين المجلدين.

فزاد اهتمامي، فدونت فهرس الأبواب لجميع المجلدات، وكان الذي نويت وقررت هو ان اجد نسخة اخرى في استنبول من «المصنف» لابن ابي شيبة فأقابل فهرس الأبواب من نسخة كوبرولو على تلك النسخة الثانية وفعلاً عثرت على نسختين منه (إحداهما في توب قابي، قسم السلطان احمد الثالث رقم: ٤٩٨، وهي ناقصة، والأخرى في نور عثمانية رقم: ١٢١٥، إلى ١٢٢١) ولا حاجة بي أن أطيل الكلام في مصنف ابن أبي شيبة ههنا، إلا أني أرى ان أنبه أن في نسخة كوبرولو منه أبواباً لم أجدها في نسختي احمد الثالث ونور عثمانية، وهذا كالجملة المعترضة، ولنرجع إلى ما كنا نتحدث عنه من حكاية الإكتشاف، فنقول انه بمعارضة ابواب المجلدة ٤٣٩ على أبواب المجلدة ٤٤٢، وبالمقابلة بين ٤٤٢ ونسختي احمد الثالث ونور عثمانية من المصنف تبين لي أن ٤٤٢ من مجلدات مصنف ابن ابي شيبة بلا شك وتحقق لدينا بدلالة عدة قرائن قوية ان المجلدة ٤٣٩ إحدى مجلدات «سنن سعيد بن منصور».

كيف نتأكد انه لسعيد بن منصور

ذكرنا فيما مضى ان على لوح الكتاب لم يذكر اسم الكتاب. بل رقم

المجلد فحسب، ولكن هذه الورقة يوجد عليها احد عشر ثبتاً، على التفصيل الآتي:

(١) على ناصية الورقة: «المجلد الرابع»

(٢) وفي حذائه: «غلط. وصح الثالث».

(٣) وفي حذائه، في سطرين: «قد ساقه سائق التقدير إلى سلك ملك الفقير/ محمد الشهير بطرقجي زادة».

(٤) وتحته نقش خاتم مدور عسير القراءة، وكأن هذا الذي تكرر على الورقة ٥٢/ الف، و١٦٦/ الف أيضاً.

(٥) وعلى يمينه: «ابن شيبة».

(٦) وتحته نقش خاتم مسدس مكتوب عليه في سطرين: «إنما لكل/ امرىء ما نوى» وتكرر هذا النقش على الأوراق ٣٠، ٧٠، ١٠٩، ١٣٩، أيضاً.

(٧) وتحته: «لابن أبي شيبة».

(٨) وفي جنبه على يساره في ثمانية أسطر ترجمة سعيد بن منصور (وسنذكره فيما بعد).

(٩) وتحته على يمينه نقش خاتم كبير بيضوي، إعلاماً بالوقف في خمسة أسطر: «هذا ما وقف/ الوزير ابو العباس احمد/ ابن لوزير ابي عبد الله محمد/ عرف بكوبريلي أقال الله/ عثارهما» (وتكرر هذا الختم على هامش الأوراق ٢، ٥٧، ١٠٨ أيضاً.

(١٠) وتحته رقم التسجيل في دفتر المكتبة، وهو: «٤٣٩».

(١١) وفي جنبه على اليسار، في ثلاثة أسطر: «فيه من الكتب/ باب الحث على تعليم الفرائض، من كتاب الفرائض، كتاب ولاية العصبة، / كتاب

الوصايا، كتاب النكاح، كتاب الطلاق، كتاب الجهاد.

أما الورقة الأخيرة، وهي ١٦٦، فنجد هناك ثبتاً واحداً، في أربعة أسطر كما يلي: «آخر كتاب الجهاد، كتبه العبد/ الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن أحمد بن علي الخطيب يومئذ بقرية العبادية من مرج دمشق/ رحمه الله وغفر له، ولمن قرأه، ودعا له بالمغفرة، وترحم عليه، ولجميع المسلمين. والحمد لله رب العالمين/ وكان الفراغ من كتابته العشر الأول من شهر ربيع الأول سنة خمس عشرين [كذا] وسبعمائة من الهجرة النبوية». وسوى هذا لا يوجد في أثناء الكتاب اي ثبت أو إشارة لمعرفة مؤلف الكتاب.

فكما نرى في الثبت الخامس والسابع من الورقة الأولى، عزيَ هذا الكتاب إلى ابن أبي شيبة، ولكن لما قابلناه على نسختين ثبتين من المصنف لابن أبي شيبة لم نجد بينهما اي علاقة وشبه، ولم يبق اي شك أن ذكر ابن أبي شيبة على ورقة اللوح من الكتاب، بخط غير خط الأصل، ليس إلا من سهو بعض من ملكه، ولعل الثبت الثاني (الذي يقول ان المجلد ليس بالرابع، بل الثالث من مجلدات هذا الكتاب) أيضاً من ذلك المالك الغالط[1] ومن المحتمل ان الذي كتبه، التبس عنده ابن شعبة (أي سعيد بن منصور ابن شعبة) بابن أبي شيبة. فلما كان عنده بعض المجلدات من مصنف ابن أبي شيبة - وترتيب الكتابين على أسلوب واحد - تبادر الى الخلط بينهما. وكأنه لم يكن يعرف اسم ابن أبي شيبة ولا إسم أبيه. ولذلك لم ينتبه مع وجود ترجمة سعيد بن منصور على لوح الكتاب. كما ذكرنا تحت الثبت الثامن.

ثم إن مخطوطتنا تبتدىء كما سيرى الناظر، بعد البسملة، بهذه العبارة:

---

(١) لكنه لم يخطىء في جعله ثالثاً، فإن المجلد الثالث في الواقع تدل عليه الأبواب المذكورة فيه. والعلامة الذي فوق كلمة «الرابع»، أعني (صـ) فإن هذه العلامة تدل، على ان الكلمة هكذا في الأصل المنقول عنه ولكنها خطأ في الواقع، وهذه العلامة عندي بخط كاتب الأصل. ١٢ الأعظمي.

« أخبرنا ... الأنماطي ، قال أنبأ ... الكرخي رحمه الله ، قال أنبأ ابو علي ... ابن شاذان قراءة عليه وأنا أسمع ، قال انآ .. السجستاني . قال انآ محمد بن علي ابن الصائغ ، قال ثنآ سعيد بن منصور قال: ـ باب الحث على تعليم الفرائض ـ حدثنا ابو عوانة ، وأبو الأحوص ، وجرير بن عبد الحميد ، عن عاصم الأحول ، عن مؤرق العجلي قال ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا الفرائض ... إلخ » وبعد ذلك كل حديث يبتدىء إما بقوله: « سعيد ، قال: نا ... » او بقوله: « حدثنا سعيد ، قال: نا ... » او ما في معناه حسب مصطلح المحدثين المعروف فيما بينهم ، مثلاً نجد على الورقة ١٦٥ / ب: « حدثنا سعيد ، قال: نا صالح بن موسى ، نا معاوية ، عن نعيم بن ابي هند ، عن عمه قال: كنت مع علي بصفّين .. إلخ ».

فلا بد من ان نستنتج منه أن سعيداً هذا هو المؤلف . وان الانماطي هو راوي الكتاب ، بقي السؤال: من هذا المؤلف سعيد بن منصور ؟ فجزى الله اسلاف المسلمين الذي اوجدوا الاسناد ودونوا فن الرجال ، فنجد المراجع الكافية الشاملة لهم من لدن راوٍ أخير إلى الراوي الذي شهد الواقعة ، فالإسناد هو الذي يسر لنا ان نعرف مؤلف الكتاب بالتعيين .

تحقيق الرواة

نحن نرى ان الحديث الأول في هذا المجلد من الكتاب رواه محمد بن علي ابن زيد الصائغ عن المؤلف سعيد بن منصور ، فلو رجعنا من كتب الرجال إلى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني مثلاً ، لوجدناه يصرّح في ترجمة سعيد ابن منصور بن شعبة ، « ومحمد بن علي بن زيد الصائغ ، واحمد بن نجدة بن العريان ، وهما راويا كتاب السنن عنه [اي عن سعيد بن منصور] » (ج ٤ رقم: ١٤٨) ونرى ان سعيد بن منصور في اول الكتاب يروي عن ابي عوانة وأبي الأحوص وجرير بن عبد الحميد ويروي على الورقة ١٦٥ / ب

عن صالح بن موسى، فلو راجعنا تهذيب التهذيب لوجدنا فيه ان سعيد بن منصور يروي عن أبي عوانة وأبي الأحوص (ج ٤ رقم: ١٤٨) وكذلك يقول «صالح بن موسى روى عنه سعيد بن منصور» (٦٩٠/٤) واذ لا نرى الإطالة فنكتفي بهذا القدر.

وحاصل البحث ان من المتحقق عندنا ان المجلدة ٤٣٩ «سنن سعيد بن منصور» وكان كتاباً ضخماً، لكن الذي عثرنا عليه ليس بكامل مع الأسف، بل هو قطعة منه اي المجلد الثالث منه فقط، وهذه القطعة ستعطينا فكرة عن منهاج عمله وقبسا من غزير علمه، ويمكننا ان نقيس عليه باقي كتابه.

ترجمة سعيد بن منصور

إن أقدم من وجدناه يذكر سعيد بن منصور هو معاصره ابن سعد المتوفى ٢٣٠ هـ (الطبقات، ج ٥، ص ٣٦٧) الذي يقول:

«سعيد بن منصور يكنى أبا عثمان توفي بمكة سنة ٢٢٧».

وكذلك الإمام البخاري (ف ٢٥٦) الذي ادرك عصره، في كتاب «التاريخ الكبير» (ج ١/٢، ص ٤٧٢، رقم: ١٧٢٢) ما نصه:

«سعيد بن منصور، مات بمكة سنة تسع وعشرين ومائتين او نحوها، أبو عثمان، خراساني سكن مكة سمع عبيد الله بن إياد، وحجر بن الحارث».

وذكر في التاريخ الصغير نحوه غير أنه ذكر هناك ما هو الثبت في سنة وفاته فقال: مات سنة سبع وعشرين (ص ٢٤٠).

وهاتان الترجمتان لها أهميتها لكونها من قلم من أدرك عصر سعيد بن منصور، لكنها لا ترويان الغليل.

ثم وجدنا ابن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٦٧ الذي ولد بعد سعيد بثلاث

عشرة سنة، يترجمه في الجرح والتعديل، وترجمته أشبع من السابقتين، يقول ابن ابي حاتم:

«سعيد بن منصور أبو عثمان سكن مكة ومات بها، روى عن طعمة بن عمرو، وعبيد الله بن إياد، وحجر بن الحارث، سمعت أبي يقول ذلك، قال أبو محمد: روى عنه أبي، وأبو زرعة، حدثنا عبد الرحمن، انا حرب بن إسماعيل [الكرماني] فيما كتب إلي قال: سمعت احمد بن حنبل يُحسِنُ الثناء على سعيد بن منصور، حدثنا عبد الرحمن نا عيسى بن بشر الصيدناني الرازي، قال: سألت محمد بن عبد الله بن نمير عن سعيد بن منصور، فقال: ثقة، حدثنا عبد الرحمن قال: سألت ابي عن سعيد بن منصور فقال: ثقة، (ج ٢، ق ١، ص ٦٨).

أما المنتظم لابن الجوزي (ف ٥٩٧) فلم يطبع إلى الآن ما يختص منه بأحوال سنة ٢٢٧، لكني راجعت مخطوطته في مكتبة توپ قاپي باستانبول فلم اجده يذكره، ولكن في القسم المطبوع منه ذكر اسماء بعض تلاميذه، وهاكم نصّه (من المجلد الخامس، القسم الثاني):

«رقم: (١٩١): عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن لاحق البزاز، سمع سعيد بن منصور...

«رقم: (٢١٦) جعفر بن محمد بن القعقاع ابو محمد البغوي، سكن سرّ من رأى، وحدث بها عن سعيد بن منصور وغيره...

«رقم: (٢٤٢) محمد بن خليفة بن صدقة ابو جعفر يلقب بعنبر، من أهل دير عاقول، روى عن سعيد بن منصور وغيره...

وذكره الذهبي (ف ٧٤٨) في «تذكرة الحافظ» (ج ٢، ص ٥، رقم: ٤) فقال:

« سعيد بن منصور بن شعبة الحافظ الإمام الحجة ابو عثمان المروزي، ويقال الطالقاني، ثم البلخي، المجاور - يعني مجاور مكة - صاحب « السنن »، سمع مالكاً، وفليح بن سليمان. والليث بن سعد، وعبيد الله بن إياد، وأبا معشر، وأبا عوانة، وطبقته.

وعنه أحمد، وأبو بكر الأثرم، ومسلم، وأبو داود، وبشر بن موسى، وأبو شيب الحراني، ومحمد بن علي الصائغ، وخلق ».

« وقال سلمة بن شبيب: ذكرت سعيد بن منصور لأحمد بن حنبل، فأحسن الثناء عليه، وفخم أمره، وقال أبو حاتم: ثقة من المتقنين الأثبات ممن جمع وصنّف، وقال حرب الكرماني: أملى علينا نحواً من عشرة آلاف حديث من حفظه.

« مات سعيد بمكة في رمضان سنة سبع وعشرين ومائتين، رحمه الله تعالى، قلت: وهو في عشر التسعين.

« ومن الغيلانيات: ثنا بشر بن موسى، ثنا سعيد بن منصور، عن ابن أبي خالد، عن حكيم بن جابر، عن أبيه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو يأكل طعاما فيه دباء، فقلت: ما هذا يا رسول الله؟ قال: نكثر به طعامنا، اهـ ».

أما ابن كثير (ف ٧٧٤) فهو يذكره في البداية والنهاية (ج ١٠، ص ٢٩٩) في وفيات سنة ٢٢٧، ويقول:

« وسعيد بن منصور، صاحب السنن المشهورة، التي لا يشاركه فيها إلا القليل ».

وأطول من هذا كله ما ترجمه به ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب (ج ٤، ص ٨٩، و٩٠، رقم: ١٤٨) مع الإشارة إلى مصادر عديدة، ومنها ما لم تصل إلينا، وهذا نص ترجمته:

«سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني، أبو عثمان المروزي، ويقال: الطالقاني، يقال: ولد بجوزجان ونشأ ببلخ، وطاف البلاد، وسكن مكة، ومات بها».

«روى عن مالك، وحماد بن زيد، وأبي قدامة الحارثة بن عبيد، وداؤد بن عبد الرحمن، وفليح، ومالك، [مكرر؟] وأبي الأحوص، وابن عيينة، ومهدي بن ميمون، وهشيم، وأبي عوانة، وجماعة.

«وعنه مسلم، وأبو داؤد، والباقون بواسطة يحيى بن موسى، خت، وأبي ثور، وعبدالله الداري ومحمد بن علي بن ميمون الرقي، والعباس بن عبد الله السندي، وعمر بن منصور النسائي، والذهلي، وأبو حاتم، وأبو بكر الأثرم، وحرب الكرماني، وأحمد بن حنبل، ـ حدث عنه وهو حيّ ـ والحسن بن محمد الزعفراني وأبو زرعة الرازي، و [أبو زرعة] الدمشقي، ومحمد بن علي ابن زيد الصائغ، وأحمد بن نجدة بن العريان ـ وهما راويا كتاب السنن عنه، ـ وبشر بن موسى، وأحمد بن خليد الحلبي، وطائفة.

«قال حرب: سمعت أحمد يحسن الثناء عليه، وقال سلمة بن شبيب: ذكرته لأحمد، فأحسن الثناء عليه، وفخم أمره، وقال حنبل، عن أحمد: هو من أهل الفضل والصدق، وقال ابن نمير، وابن خراش: ثقة، وقال أبو حاتم: ثقة من المتقنين الأثبات، ممن جمع وصنف.

«وكان محمد بن عبد الرحيم إذا حدّث عنه، أثنى عليه، وكان يقول: حدثنا سعيد، وكان ثبتا.

«وقال أبو زرعة الدمشقي: أخبرني أحمد بن صالح وعبد الرحمن بن إبراهيم أنهما حضرا يحيى بن حسان يقدّمه ويرى له حفظه، وكان حافظا.

«وقال الحاكم: سكن مكة مجاورا، وكان راوية ابن علية، وأخذ أئمة الحديث، له مصنفات وقال حرب: كتبت عنه سنة ٢١٩، أملي علينا نحواً

من عشرة آلاف حديث من حفظه، ثم صنف بعد ذلك.

«وقال يعقوب بن سفيان: كان إذا رأى في كتابه خطأ، لم يرجع عنه.

«وقال ابن سعد، وغيره: مات سنة سبع وعشرين ومائتين، زاد ابن يونس: في شهر رمضان وقال أبو زرعة الدمشقي: سنة ٦، وقال غيره: سنة ٨، وقال موسى بن هارون: سنة ٩، والصحيح الأول، والله أعلم.

«قلت: قال ابن يونس: مات بمصر، حكي في التهذيب، عن ابن يونس مع ابن سعد وغيرهما: انه مات بمكة.

«وقال البخاري في تاريخه: مات سنة ٢٩ أو نحوها بمكة.

«ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: كان ممن جمع وصنف، وكان من المتقنين الأثبات، وقال ابن قانع: ثقة، ثبت، وقال الخليلي: ثقة، متفق عليه، ووثقه أيضا مسلمة بن قاسم، وقال يعقوب بن سفيان: كان سعيد، وهو بمكة، يقول: لا تسألوني عن حديث حماد بن زيد، فإن أبا أيوب ـ يعني سليمان بن حرب ـ يجعلنا على طبق؛ ولا تسألوني عن حديث ابن عيينة فإن هذا الحميدي يجعلنا على طبق».

أما ابن العماد (ف ١٠٨٩) فيذكر صلة الإمام البخاري مع سعيد بن منصور ويقول في «شذرات الذهب» (ج ٢، ص ٦٢) في أحوال سنة ٢٢٧ ما يأتي:

«وفيها أبو عثمان سعيد بن منصور الخراساني الحافظ صاحب السنن، روى عن فليح بن سليمان، وشريك، وطبقتهما، وجاور مكة، وبها مات في رمضان، وقد روى البخاري عن رجل عنه، وكان من الثقات المشهورين».

ونختم بالذي على لوح المخطوطة:

«سعيد بن منصور بن شعبة الإمام أبو عثمان المروزي، ويقال: الطالقاني،

طاف، ورحال، ووسّع في الطلب المجال، قال سلمة بن شبيب: ذكرته لأحمد ابن حنبل، فأحسن الثناء عليه، وفخّم أمره، وقال أبو حاتم: ثقة من المتقنين ممن جمع وصنف، مات بمكة في رمضان سنة سبع وعشرين ومائتين، وهو في عشر التسعين، رحمه الله».

وهذه العبارة شبيهة بما نقلنا عن الذهبي، ولكن مع بعض الزيادات المفيدة.

أهمية الكتاب ومكانته في تاريخ علم الحديث

كما رأينا فيما سبق، بقيت هذه المخطوطة مجهولة إلى الآن، وبما أنها ذُكرت في فهرس المكتبة كإحدى مجلدات كتاب المشكاة ـ وهو مطبوع مرارا عديدة ـ لم يعتن بها أحد، ولا أعرف نسخة أخرى لسنن الإمام سعيد ابن منصور هذه، فلم يذكرها بروكلمان (مع سعة فهرس فهارسه للكتب العربية الذي نشره بالألمانية تحت الإسم المقال «تاريخ الآداب العربية») ولا غيره فيما أعرف، فنحن إذن ننشر كتابا ليس يعرف له إلا نسخة واحدة في العالم.

رأينا أيضا فيما سبق أن الأئمة ابن حنبل، ومسلماً، وأبا داؤد، وغيرهم كانوا من تلاميذ سعيد بن منصور، فلا محالة أن اكثر مروياته وصل إلينا في ضمن كتب تلاميذه، ولكن مع ذلك يوجد لكتب الأقدمين مزايا تحتم علينا أن نلفت النظر إليها.

إن مؤلفنا يذكر، سوى الأحاديث النبوية، كثيراً من آثار الصحابة، وإن تحقيق ما هو جديد عنده ولم يذكر في كتب أخرى أمر يحتاج إلى بحث خاص، ولكن يمكن لكل قارىء، ولو بنظرة عابرة أن يجد في كتاب النكاح والطلاق مثلاً قضايا الحياة اليومية في عصر سيدنا عمر، قضايا وقعت حقيقة

وليست مفروضة كما هو الحال في كتب الفقه، وهذه القضايا والحوادث مصدر مهم لتاريخ الحياة اليومية والإجتماعية في عصر الصحابة، وفعلا وجدت معلومات مهمة لم أكن أعرفها من قبل، من مصادر أخرى، وكذلك في كتاب الجهاد نجد صدى العلائق الدولية، خاصة مع الفرس والروم البيزنطيين، وفيها حوادث لا نجدها في كتب التاريخ المتداولة.

وثانيا: إن فضلاء الإفرنج كانوا فكروا ـ كما هو معروف ـ أن ما ذكره المحدثون من أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ـ ممن وصل إلينا كتبهم ـ لا يصح انتسابه إلى النبي عليه السلام، حتى ولا إلى الصحابة رضي الله عنهم، بل هؤلاء المحدثون (البخاري ومسلم وغيرهما) إما أنهم إخترعوا واختلقوا المتون والأسانيد من عند أنفسهم، وإما انهم نقلوا في تآليفهم ما كان متداولا على ألسن الناس في عصرهم، مما هو بالمعارف الشيعة وبفولكلور (Folklore) أكثر شبها منه بالتاريخ، وكان أساس ادعاء هؤلاء المستشرقين أنه لا يوجد كتب من كان قبل البخاري ومسلم، وأنه لا يوجد حجة على أن أسماء من ذكروا في الأسانيد مطابقة لحقيقة الحال.

من المعلوم، لو أننا طبقنا العُشر العشير من أصول هذا النقد الإفرنجي على كتب الإفرنج من اليهود والنصارى، وعلى كتب المجوس والبراهمة وغيرهم من الكتب الدينية ـ فضلا من عامة كتبهم التاريخية ـ لم يثبت على النقد منها شيء يعتد به، ولكن لا نحتاج إلى مثل هذا الهجوم وإلزام الخصم بغير ما هو بصدده، بل نجيب كما يجاب على سؤال سائل، فنقول: إن مثل هذه الإحتمالات لا ينتهض أمام ما اكتُشف في السنين الأخيرة من كتب القدماء، من حسن حظ العلم والتاريخ، فمثلا يقول البخاري: «عن أحمد بن حنبل، عن عبد الرزاق بن همام، عن معمر بن راشد، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي عليه الصلاة والسلام...» فما دام لم يوجد لدينا إلا «صحيح» البخاري، جاز مثل هذه الشكوك والشبهات. أما الآن «فمسند»

أحمد بن حنبل مطبوع؛ و «مصنف» عبد الرزاق، و «جامع» معمر بن راشد كلاهما تحت الطبع، و «صحيفة» همام بن منبه مطبوع، وترى عند المقابلة والمعارضة بينها أنه لا يوجد أي فرق بينها في الروايات المتعلقة البتة، فإذا فات الشرط فات المشروط. فبطل زعم من زعم أن متون البخاري وأسانيده مختلقة، وقد أطلنا الكلام في مقدمة «صحيفة» همام بن منبه (خاصة في طبعتها الخامسة مع الترجمة الإنكليزية) فليرجع إليها والحميدي أستاذ آخر للبخاري، وكتابه أيضا اكتشف حديثا، ويتشرف المجلس العلمي بنشره، أيضا كما أنه ينشر «مصنف» عبد الرزاق.

وكذلك الحال لصحيح الإمام مسلم بن الحجاج، فمن أساتذته سعيد بن منصور، ولعل يوما من الأيام نعثر أيضاً على مؤلفات الوسائط بين سعيد بن منصور، والنبي عليه السلام، فالحلقة الأولى من هذه السلسلة لثاني الصحيحين، صحيح مسلم - وهي حلقة ثمينة جدا - اكتشف الآن ونتشرف بتقديمها إلى أهل العلم، فكلما روى مسلم عن سعيد بن منصور يمكن لنا أن نراجع سنن سعيد، ونتحقق أن الإمام مسلما لم يكذب ولم يخترع شيئا من عند نفسه، بل أدى إلى من بعده ما تلقى ممن قبله بكل ديانة وأمانة.